أدب الطفل والإعلام فى عالم متغير

أدب الطفل والإعلام فى عالم متغير

أ.ياسر مصطفى عثمان

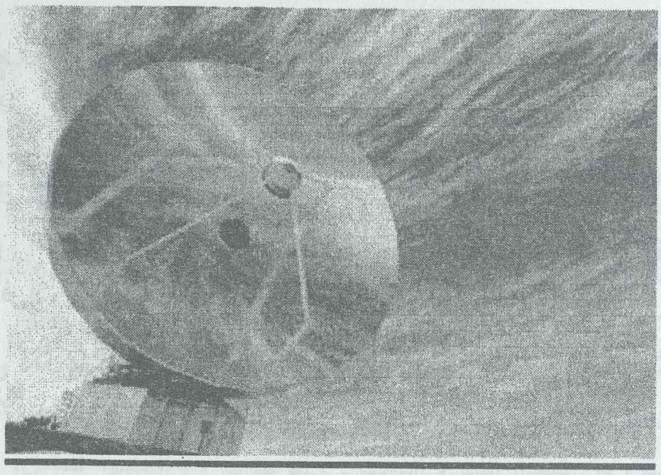

الأطفال هم الثروة الحقيقية للأمة، فهم براعم الغد وشباب المستقبل، بأيديهم تبنى الأمم، وتنهض الشعوب، وتتقدم الإمبراطوريات؛ لذا كان لابد من الاهتمام بالأطفال من حيث البناء السلوكى، والوجدانى، والنفسى، والاجتماعى، والعمل على إنمائه بالشكل الصحيح الذى يخلق شبابًا متوازنًا له القدرة على النبوغ والإبداع خصوصًا فى ذلك العالم المتغير، أو ما يمكن أن نطلق عليه بعالم السماوات المفتوحة فى وجود ما يسمى بعصر العولمة التى خلقتها النهضة التكنولوجية من وسائل الإعلام والاتصال، حيث أصبح ذلك العالم الكبير ما هو إلا قرية صغيرة، رغم ما يفصل بين حدودها من أميال شاسعة.

وإذا كان الأدب هو ما يتأدب به الأديب من الناس، أو لأنه أدبًا لأنه يدفع الناس إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح، ولقد تطور المعنى ليدل على الظرف، وحسن الحديث، والتحلى بالثقافة والعلم والمعرفة، ثم تجاوز التعريف الحدود اللغوية والمكانية ليصبح حصيلة الإنتاج الأدبى، والشعرى، والنثرى، والخطابى فى عصر من العصور، فإن أدب الطفل، ومجموعة الإنتاجات الأدبية المقدمة للأطفال، والتى تراعى خصائصهم، وحاجاتهم، ومستويات نموهم، وهو كل ما يقدم للأطفال فى طفولتهم من مواد تجسد المعانى والأفكار والمشاعر، فهو العصا السحرية، أو المفتاح السحرى الذى يستطيع الكبار أن يدخلوا به إلى عقول الأطفال وقلوبهم فى وقت واحد، ويسهمون فى بناء إطار قيمى وأخلاقى ليتكاملا سويًا لتوجيه السلوك على النحو الذى يرتضيه الكبار لبناء شخصية متزنة للطفل.

ولكن هناك العديد من التحديات التي تقابل أدب الطفل في ظل القرن الحادى والعشرين، حيث تتلاطم المتغيرات وتتلاحق، وتتناقض الطموحات في ظل نظام عالمى جديد مازال يتشكل ويفرض تحدياته على المجتمعات والشعوب كافة، ويضعنا أمام سؤال محير : كيف يمكن أن نحافظ على هويتنا القومية مقابل نظام عالمى يجعل الثقافة الغربية هى الوجه الوحيد للتحديث؟

ومن هنا يبرز دور المؤسسات الاجتماعية المهمة كالأسرة، والمدرسة، ووسائل الإعلام فى تبصير أطفالنا بتراثهم العربى الأصيل، وتهيئتهم لكى يتعاملوا مع مستجدات العولمة، والمتغيرات الحديثة فى عالمنا المعاصر.

ومن أهم تلك المؤسسات على الإطلاق الإعلام الذى أصبح فى ظل تقدم وسائل الاتصال يلعب دورًا مهمًا فى حياة المجتمعات، حيث أصبح لهذه الوسائل قدرة كبيرة على السيطرة على الأفراد، والتأثير فيهم حول مختلف القضايا المهمة، وخلق رأى عام حولها، إضافة إلى قدرة الإعلام الفائقة على التأثير البالغ فى شخصية الأطفال، لما يتمتع به من وسائل جذب وإثارة.

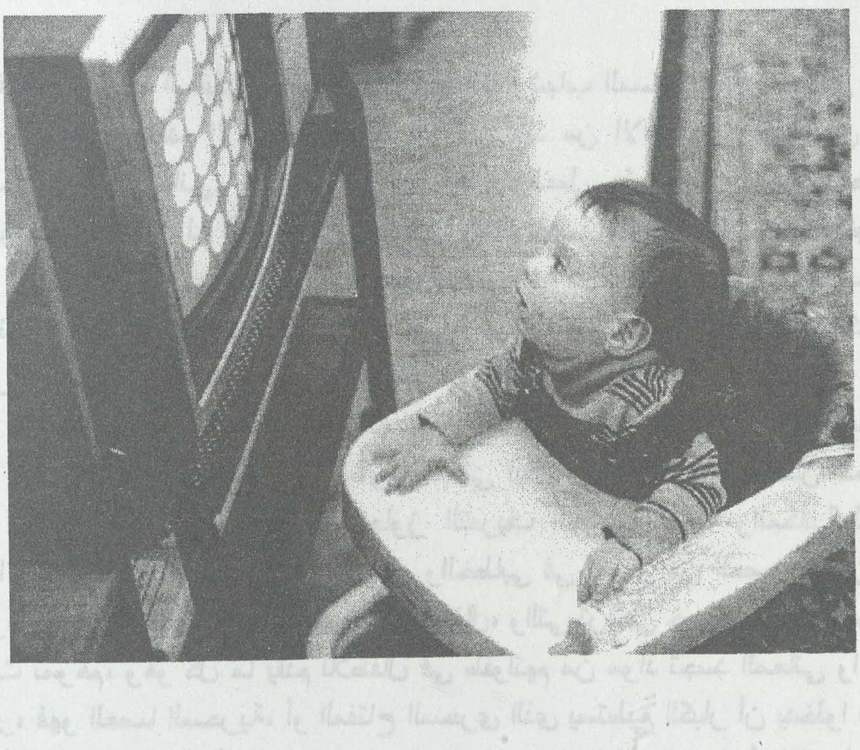

أنواع الإعلام وأشكاله، وأدواره فى أدب الطفل

تتنوع وسائل الإعلام فيما بينها بين الإعلام المقروء، والمسموع، والمرئى، وتعد وسائل الإعلام المقروء أقدم الوسائل الإعلامية وأكثرها تأثيرًا على أجيال عديدة وفترات تاريخية مختلفة، وعلى الرغم من ضعف قوة تأثير الإعلام المقروء مقارنة بالإعلام المسموع والمرئى، فإنه لا يمكن تجاوز دور وسائل الإعلام المقروء؛ لأنها لاتزال تلعب دورها الحيوى فى بيئات متعددة أكثر من وسائل الإعلام المسموع والمرئى، وتتمثل وسائل الإعلام المقروءة فى الكتب، والمجلات، والقصص، ودواوين الشعر، والمسرحيات المطبوعة.

ويمكن لوسائل الإعلام المقروءة أن تسهم بشكل مباشر فى توجيه أدب الطفل، وذلك من خلال تزويد الأطفال بكم هائل من المعارف والمعلومات التى تسهم فى بناء إطارهم المعرفى، وتنمية الحساسية تجاه الجمال، والقيم الرفيعة، والتقاليد العريقة، وتنشيط الوجدان، واستثارته للإحساس بكل ما يطرحه للآخرين من قضايا ومشكلات، وما فى الطبيعة من جمال، كذلك تتمكن من تنمية القدرة الذهنية، والوجدانية، والحسية للطفل، وإصدار الأحكام الجمالية، إضافة إلى تنمية خياله، وتوظيف حواسه بما يعمق الحس اتجاه اللغة والأشياء، والابتكار والإبداع، وتنمية القيم الروحية والتربوية الصحيحة، والعادات الاجتماعية والاقتصادية، بما يتفق مع الآباء والأمهات والمعلمين من استجابات، كذلك تعمل على استثارة الدوافع الداخلية للقيام بأنشطة عملية ووجدانية للتوصل إلى الإحساس بالتوافق والتوازن، والرضا التام.

أما وسائل الإعلام المسموع، فإنها تتميز بإمكانية الاستماع إليها أثناء تأدية عمل آخر، كما أنها لا تحتاج إلى معرفة القراءة والكتابة، كذلك أنها وسيلة جيدة للأميين، والأطفال الصغار الذين لم يتمكنوا من مهارات القراءة والكتابة بعد، فهى تستطيع من خلال جذب الانتباه والتشويق أن تساعد الأطفال على تخطى الأسوار التى كانت تحبسهم فى عالم ضيق، وتزودهم بالمعلومات والقيم التى تشكل عصب شخصيتهم، كما تساعدهم فى عملية التنشئة الاجتماعية، والدينية، والسياسية، والسلوك اليومى.

أما عن وسائل الإعلام المرئى، فإنها تلعب دورًا حيويًا فى توجيه ونقل أدب الطفل، حيث يعد التلفاز أكثر وسائل الإعلام المرئية انتشارًا؛ لما له من جاذبية خاصة، ويعد أكثر تأثيرًا فى الأطفال؛ وذلك لأن الطفل يبدأ فى العرض لتأثير برامجه من مرحلة ما قبل المدرسة؛ ولذلك فإنه أصبح يسهم بشكل كبير فى صياغة تفكير الأطفال، ويحدد لهم التوجهات الثقافية، والفكرية، وأنماط السلوك الاجتماعى التى تصنع شخصياتهم.

الإهمال الإعلامى ونتائجه العكسية

مع تنامى وتعاظم دور وسائل الإعلام والصحافة - وأهمها التلفاز - فى تنشئة الأجيال الحديثة، حيث تعتبر ناقلاً أساسيًا لأدب الطفل، وأصبح الحديث عن دور هذه الوسائل الجديدة حساسًا وبالغ الخطورة؛ لأن الخطأ البسيط ينتشر بسرعة شديدة إلى كل البيوت، وإلى كل الأطفال.

ولقد بات لازمًا وضع الأسس التى يقوم عليها أدب الطفل، ومراقبة ما تبثه أجهزة التلفاز العربية إلى الطفل العربى من قصص وبرامج مترجمة ومحلية دون مراعاة للبيئة، ومستوى التطور، والهدف المرجو، وحتى الوقت المناسب لعرض هذه البرامج؛ لذا فإن وسائل الإعلام ليست فى مجملها أدوات تثقيف وترفيه، وإنما قد تكون أدوات هدم فى زمن التدفق المعلوماتى.

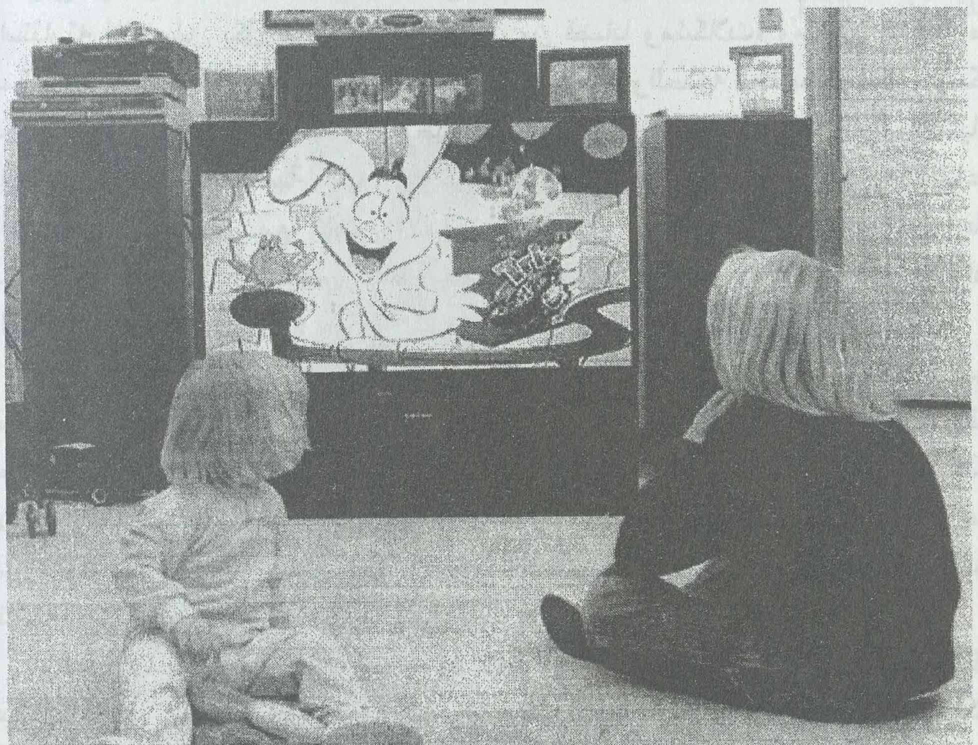

أزمة البرامج المستوردة

تؤكد اليونسكو فى دراستها على أن التلفازات العربية تستورد من الدول الأجنبية مثل : الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا ما بين ٤٠%، و٦٠% من مجموع البرامج التى تروج ضمن التلفاز، هذا هو الواقع، فهل نستطيع أن نرفض وبجدارة البرامج المستوردة. وما يهدد دور برامج الأطفال فى تثقيف الطفل العربى اعتمادها على المضمون الأجنبى، إذ يهدد هذا المضمون الذاتية الثقافية للمجتمعات العربية التى يعرض فيها، وقد يكون من العوامل التى تساعد على اهتزاز أنماط القيم السائدة فى المجتمع. وتزداد الخطورة حينما ينظر الطفل والشباب إلى ما يشاهدونه على الشاشة كواقع، ولكن يبقى سؤال : كيف يمكن استثمار هذه التقنية الحديثة فيما يمكن أن يشكل تراكمًا معرفيًا، وقيمًا أخلاقية تكون الزاد المحرك للطفل فى المستقبل؟ غير أنه من المهم مع ذلك الحفاظ على قيمنا العربية الأصيلة، وتراثنا الفكرى والأخلاقى.

تكنولوجيا المعلومات وتثقيف الطفل

إن التقدم الذى نشهده حاليًا فى جميع المجالات، وتأثيرات المعرفة الحديثة الواضحة قد ضيق المسافة بين الطفل وبين العلم والتكنولوجيا بصورة تستوجب تربية جديدة مغايرة تمامًا للتربية التى لاتزال سائدة فى مجتمعاتنا، ولم تترك مكانًا للتربية الحديثة والمعاصرة إلا فى نطاقات ضيقة وبصعوبة، وعلى أى حال فالعلاقة قوية بين التربية والثقافة، والتربية هى عنصر مهم من عناصر الثقافة، باعتبارها الأداة الأولى فى التنشئة الاجتماعية، ولابد أن تكون غايتها واضحة فى تنمية قدرات الطفل العربى فى اكتساب المعرفة، وتنمية القدرات الذهنية لدى الطفل، وتنمية القدرات الإبداعية، ومهارات التواصل مع الآخرين. ولقد أيقنت كل المجتمعات ضرورة اللجوء إلى تكنولوجيا المعلومات لمواجهة ظاهرة الانفجار المعرفى، وهو ما يستوجب إكساب الطفل العربى القدرة على التعلم الذاتى مدى الحياة، والتعامل المباشر مع مصادر المعرفة دون وسيط بشرى، ويتطلب ذلك إكساب الطفل مهارات البحث والإبحار فى الشبكة العالمية للإنترنت.

إن مهمة التعليم لم تعد تنحصر فى تحصيل المادة التعليمية بالدرجة الأولى فى أسلوب التلقين والحفظ. واستظهار المعلومات حرفيًا أسلوب يتناقض جوهريًا مع ظاهرة الانفجار المعرفى، بل الغاية فى تنمية مهارات الحصول على المعارف وتوظيفها، بل توليد المعارف الجديدة، وربطها بما سبقها.

هكذا يتبين لنا أن الإعلام هو وسيلة مهمة فى نقل أدب الطفل، وتعظيم الاستفاده منه فى ظل وجود أداة تنقية ومراقبة لما يتم عرضه ليتماشى مع القيم الأصيلة والثقافة العربية، بينما يصبح أداة لهدم شخصية الطفل عندما يفتقد التوجيه والانتقاء، وعندما يعتمد على نقل ثقافات وبيئات لا تتماشى مع قيم وأخلاقيات عالمنا العربى والإسلامى.